الأهرام

المصدر : الوسط

التاريخ : ١١ اكتوبر ١٩٩٩

روسيا

الصراعات السياسية الروسية تؤجج حرب القوقاز

تصفية الاسلاميين المتطرفين أم إبادة شعب الشيشان؟

موسكو – ايغور تيموفييف

الوسط

لعب تفجير العمارات السكنية الذي أودى بمئات من الضحايا في موسكو والمدن الروسية الاخرى في النصف الاول من ايلول (سبتمبر) الماضي دوراً فاعلاً في تعبئة الرأي العام لتأييد حكومة فلاديمير بوتين ودفعها الى المزيد من الحزم في معاملة الاسلاميين الى درجة الحسم العسكري السريع. وحتى غزو داغستان والمعارك الكبرى الثلاث التي خاضها الروس ضدهم هناك لم يكن لها مفعول كمفعول التفجيرات الارهابية المذكورة. فداغستان بعيدة على اية حال، وصدى الحرب يبلغ العاصمة فوراً، لكنه يبقى مجرد صدى. اما الانفجارات فقد جعلت حتى ألدّ خصوم الكرملين (ما عدا الجنرال الكسندر ليبيد) يتلمسون مواضع الخطر الفعلي. ونسبت كل الاوساط السياسية (ما عدا ليبيد) التفجيرات الى الاسلاميين الشيشانيين، ما جعل محافظ موسكو يشنّ على ابناء الشيشان والقوقازيين المقيمين في العاصمة الروسية حملة شعواء لم يشهدوا مثلها حتى في أحلك عهود الاستبداد الستاليني. ويبدو ان هذا الجو النفساني المتوتر دوّخ رأس بوتين وأغشى بصيرته لدرجة جعلته يطلق كلمته الشهيرة: «سنسحق الارهابيين حتى في المراحيض».

وقد انتقل بوتين من القول الى الفعل على رغم انه لم يسحق بعد احداً ممن يسمّيهم الارهابيين. فما حصل اخيراً هو توغّل القوات الروسية الضخمة، المحتشدة على «الحزام الامني»، في العمق الشيشاني على مسافات متباينة ونزوح عشرات الآلاف من الاهالي الى الجمهوريات المجاورة حيث تجاوز عدد اللاجئين الى انغوشيا وحدها مئة الف. أما نتائج المرحلة التمهيدية، الجوية، من الحرب فهي مذهلة من حيث القساوة والشدة. ويكفي القول ان مقاتلات «سوخوي – ٢٥» الهجومية وقاذفات القنابل الجبهوية «سوخوي – ٢٤» وطائرات الاستطلاع «انطونوف – ٣٠» تقوم بـ٣٠–٥٠ طلعة يومياً، وانها حتى نهاية ايلول (سبتمبر) قامت بأكثر من ١٧٠٠ طلعة حربية واستطلاعية (منها ١٣٠٠ طلعة للقصف بالقنابل)، وان خسائر الاسلاميين حسب قائد القوة الجوية الروسية الجنرال اناتولي كورنوكوف، بلغت ٢٠٠٠ قتيل واكثر من ٢٥٠ من التحصينات وحوالي ١٥٠ من القواعد واماكن التجمع واكثر من ٦٠ سيارة مدرعة و٣٠ جسراً و٤ محطات للانذار المبكر. وردمت بالصخور والاحجار عشرات المنافذ الجبلية وتدمّر حوالي ٢٥٠ كيلومتراً من الطرق والمسالك الجبلية وتم زرعها بالألغام. والى ذلك فالقصف الذي تتعرض له العاصمة الشيشانية غروزني أكثر فظاعة.

ويبدو ان «الحسم البري» هو العمود الفقري لمخطط بوتين الاستراتيجي، ولذا فليس هناك ما يحول دون العمليات البرية الواسعة النطاق في الشيشان. وهي على مراحل ايضاً، قد تقتصر الاولى على احتلال المناطق الشمالية (ناوورسكي ونادتيرتشني وشلكوفسكي) المنبسطة حتى نهر تيريك الذي يقسم الشيشان شطرين. وهي تعتبر تقليدياً موالية لروسيا (في حرب ١٩٩٤ – ١٩٩٦ دخلتها قوات من دون مقاومة تذكر). وبذلك تنشأ في البداية حكومتان شيشانيتان اسلامية جنوب تيريك وروسية شمالية.

حكومة المنفى

وجاء استئناف نشاط البرلمان الشيشاني المنتخب العام ١٩٩٦ قبل ايام خطوة اولى نحو تأليف «حكومة المنفى الشيشانية» التي يراد لها ان تنتقل من موسكو الى «الحزام الامني» حول الشيشان. وهو حزام قد «ينتفخ» في جزئه الشمالي ليشكل جمهورية شيشانية ثانية وموقتة (!) ولا احد بالطبع يحمل فكرة ترميم برلمان ١٩٩٦ محمل الجد، وقد وصفها بعض

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

النزوح الشيشاني الثاني خلال التسعينات.

من مرة. اما الاصوات التي تحذر من مغبة التورط ثانية في المستنقع الشيشاني فلا تزال ضعيفة، وهي تنبعث من مراكز ثانوية غير مؤثرة في السلطة حالياً (ليبيد، يافلينسكي) او ضعف تأثيرها بعدما كانت فاعلة (بيريزوفسكي) او لم يكن لها تأثير عليها مطلقاً (كوفاليوف وانصار حقوق الانسان).

ومعروف ان ألكسندر ليبيد هو الذي وقّع عن الجانب الروسي اتفاقية خسافيورت السلمية مع الشيشان. وجاء فسخ هذه الاتفاقية اخيراً وان من دون إعلان رسمي، ليسدد ضربة قاضية الى سمعة الجنرال المتقاعد الطامح الى تولي مهام رئيس الجمهورية او رئيس الوزراء على الاقل. ومنطقي ان يعترض ليبيد على ضرب الشيشان مجدداً، بل انه اتهم الكرملين بتدبير تفجير العمارات السكنية في موسكو ليؤلف الرأي العام على الاسلاميين. اما بوريس بيريزوفسكي فلا يريد، كما تقول مصادر عدة، ان تتعرض مصالحه التجارية في الشيشان للخطر. ويبقى انصار حقوق الانسان الذين يحتجون على بدء العمليات البرية لأن الرصاصة لا تفرّق بين الاهالي العزل والاسلاميين المسلحين. ويقول سيرغي كوفاليوف مفوض حقوق الانسان السابق في روسيا ان العمليات الموجهة ضد المتطرفين يجب ان توفر ضمانة للأهالي كي يطمئنوا مئة في المئة بأنهم لن يتعرضوا للقصف، كما يجب ان تكون الأولوية ليس للانتقام من المتطرفين انفسهم بل لانقاذ الأهالي من شرورهم.

اما انصار غريغوري يافلينسكي المعروف باستنكاره الشديد لحرب الشيشان ١٩٩٤ – ١٩٩٦ فكانوا دعوا الى انذار الشيشانيين وحتى اعلان الحرب ضدهم بعد التفجيرات في موسكو، الا انهم عادوا من جديد الى موقفهم السابق وصاروا يرفضون زحف القوات البرية الروسية وتوغلها في العمق الشيشاني، وأورد منظّرهم العسكري الكسي ارباتوف طائفة من الحجج لتبرير هذا الموقف. اهمها ان الامزجة العامة المؤيدة للانتقام تنطوي على مخاطر بالغة. فالسلطات في روسيا تعتبر اجماع الشعب ترخيصاً وتفويضاً يطلق لها العنان كي تفعل ما تشاء بالشيشان. والعسكريون يريدون الانتقام لهزيمة ١٩٩٥ – ١٩٩٦، والسياسيون يلعبون ورقة الحسم القاسي قبيل الانتخابات الرئاسية العام ٢٠٠٠.

وعلى طريقة المرء لا يلدغ من جحر مرتين يؤكد ارباتوف ان الحرب الجديدة ستعود على روسيا بفاجعة أشد وأقسى من العام ١٩٩٦.

ويضيف ان استعدادات الروس العسكرية اليوم ليست افضل مما كانت عليه قبل خمس سنوات. فموازنة وزارة الدفاع تقلصت الى النصف، فيما تقلص تعداد الجيش الى ثلثين في غضون ثلاث سنوات والآليات عتيقة ومستهلكة من عهد الحرب الشيشانية الماضية وأجريت عليها بعض التصليحات واستخدمت مجدداً.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

يلتسين لرئيس الجهاز الأمني الاتحادي: طريق الرئاسة من هنا.

المحللين بالهذيان. الا ان للملابسات «الحقوقية» المرافقة لها اكثر من دلالة. فقد اكد بوتين «ان هذا البرلمان هو الهيئة الشرعية الوحيدة المنتخبة في الشيشان وفقاً للقوانين الروسية، وكل ما عدا ذلك امر فيه نظر». وواضح انه اذا أعيدت الشرعية الى جهة كانت سُلبت منها لا بد في المقابل ان يصار الى «سلب» تلك الشرعية من مغتصبيها.

وفي هذا الخصوص يشار الى موقف المدعي العام الروسي اوستينوف، فقد أعلن تأييده المطلق للحكومة واستفاض في شرح الدعاوى المقامة ضد الاسلاميين وأعوانهم في داغستان والشيشان. والى ذلك «أفتى» القاضي مراد باغلاي رئيس المحكمة الدستورية في روسيا بأن دخول القوات البرية الشيشان امر شرعي طالما ان هذه الجمهورية تمردت وشكّلت جيشاً ثانياً في مقابل الجيش الروسي. وقال بالحرف الواحد: «ليست هناك تسمية للوضع الحقوقي الحالي في الشيشان سوى العصيان المسلح. فإن إعلان الدولة المستقلة من جهة وتقييد حقوق المواطنين، وهي مقيّدة طبعاً بفرض المحاكم الشرعية على الاقل، انما هما تمرد وعصيان».

ومضى فلاديمير بوتين الى أبعد، فوصف النظام الحاكم في الشيشان بـ«الاجرامي» من دون ان يذكر اسم اصلان مشهدوف، الا ان رفاقه «البرلمانيين» الجدد ذكروه على وجه التحديد. ولكننا اذا تذكرنا ان وزير الداخلية الاسبق الجنرال اناتولي كوليكوف اعاد الى الاذهان قبل يوم واحد من ذلك التاريخ ان اصلان مشهدوف كان، في عرف الادعاء العام الروسي، خارجاً على القانون وهارباً من وجه العدالة يتضح ان حكاية البرلمان الشيشاني المرمم وما رافقها من حملة «حقوقية» ربما هي تمهيد لإطاحة مشهدوف. ثم ان فلاديمير بوتين بحاجة الى ثلاث خطوات متداخلة ليغدو الرئيس الفعلي للجمهورية في روسيا وهي: النصر في الشيشان والتفوق في الجبهة الاعلامية والفوز في الانتخابات الرئاسية. واذا تمكن من إطاحة مشهدوف ودحر الاسلاميين وإعادة الشيشان الى حظيرة روسيا، فهل هناك تزكية افضل من هذه لتسليمه مفاتيح الكرملين بعد اعتزال يلتسن؟ ان هذه الرؤية وحدها تكفي للتدليل على «حتمية» استمرار الحرب الشيشانية بأي شكل من الاشكال حتى يرفع مشهدوف العلم الابيض او يرتمي في احضان روسيا.

والى ذلك ثمة سيناريو آخر يبدو خيالياً للوهلة الاولى. وهو ان موسكو قد تكسب ود مشهدوف وترشحه لرئاسة الجمهورية الجديدة الموالية للروس والمقتطعة من جمهورية إتشكيريا الشيشانية شمال تيريك. ويقال ان محمد علي محمدوف رئيس مجلس الدولة في داغستان ربما كان يحمل اقتراح موسكو هذا الى مشهدوف في اللقاء الذي كان مزمعاً عقده في خسافيورت قبل ايام، الا ان المقاومة الشعبية الداغستانية اعترضت عليه وحالت دون وصول الرجلين الى المدينة وتلاشت آفاق التفاوض بين مشهدوف والروس.

واللافت ان الاجماع على ضرب الشيشان قائم فعلاً في الكرملين والحكومة الروسية وفي أوسع الاوساط السياسية، سواء المؤيدة او المعارضة. ولعل موقف وزير الدفاع الروسي الماريشال ايغور سرغييف هو الحالة الوحيدة التي يلوح فيها خلاف داخل السلطة في شأن الشيشان. الا انه على الاكثر خلاف بين وزير الدفاع ورئيس اركانه الجنرال أناتولي كفاشنين في مجالات عدة، والشيشان مجرد جانب واحد من جوانب هذا الخلاف. فالماريشال رفض اقتحام غروزني رأساً بقوات برية وأصرّ على استخدام القوة الجوية فقط. وكتبت الصحف مراراً عن احتمال استقالته وحلول رئيس اركان الجيش محله، الا ان ذلك يبقى في عداد الاشاعات التي كذبها الكرملين اكثر

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

وخلال شهر ونصف من المعارك في ثلاث مناطق صغيرة متباعدة في داغستان فقدت القوات الروسية اكثر من ٢٥٠ قتيلاً و٨٠٠ جريح. وهذا، حسب ارباتوف، ثلاثة اضعاف خسائر القوات المشتركة في «عاصفة الصحراء» حيث تم تحرير دولة بأكملها وتدمير جيش من نصف مليون رجل.

ومن جهة اخرى فالقوات المسلحة الشيشانية باتت اقوى بكثير خلال هذه الفترة اذا أُنفقت عليها اموال طائلة، بينها امدادات اجنبية، كما يؤكد ارباتوف. وقد تعوّد الروس على تسميتها بالعصابات والتشكيلات غير الشرعية، الا ان ذلك مجرد كلام يتعارض والواقع، فلدى الشيشان جيش محترف مرتفع الاجور وجيد التسليح والتدريب، وتحت إمرة القادة الميدانيين ما بين ٢٠ - ٣٠ الف جندي نظامي، وبوسعهم زيادة هذا العدد على جناح السرعة. فالصبية الذين شهدوا الحرب الماضية وهم في الثالثة عشرة صاروا اليوم محاربين في الثامنة عشرة تربّوا على أزيز الرصاص. وهم يجيدون القتال ويمارسونه بكل سرور.

ويخلص ارباتوف الى القول ان التفوق في العدة والرجال هو الى جانب روسيا بالطبع، وهي قادرة ان تمحو الشيشان من وجه الارض، لكن تصفية المتطرفين بإبادة شعب كامل هو جنون رهيب. ويقدّم المنظّر الديموقراطي «وصفته» لحل المشكلة الشيشانية: يترك الامر للشعب الشيشاني كي يحرر نفسه من «ارهابييه» وتكتفي روسيا بإحكام طوق الحصار والقصف الجوي الموجّه للتعجيل بعملية «التحرير الذاتي» ■

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية